السيرة النبوية

بيان

جهل الاصدقاء .. وافتراء الاعداء

بقلم : د. محمد الطيب النجار

□□ حياة الرسول ﷺ صفحـــة خالدة من الخير والبر والرحمة ، فأما العقلاء من المؤمنين الذين أنار الله بصائرهم فيدركون ما تنطوي عليه تلك الصفحة من المعاني الجليلة والأهداف النبيلة ، وأما الذين في قلوبهم مرض من الجهل أو سفه الرأي ، أو الحقد والضغينة ، أو الكفر والجحود فتختلف آراؤهم وتتعدد وجهاتهم فيما يمرُّ بهم من الأحداث التي تتعلق بالرسول ﷺ والأنبـــاء التي قيلت عنه ، ولا شك ان هذه الأدواء جميعاً تغطي على الحقيقة ، وأحياناً تطغىٰ عليها ، ويقع البعض من المسلمين ضحية لهذه الاخطاء ، وقد يكون بعضها صادراً بِنِيَّة طيبة أو عن اجتهاد خاطىء □□

وقضى الله بحكمته ورحمته أن يكون الأنبياء جميعاً منذ أبيهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ هم الظل الظليل الذي هيأه الله ليفيء النَّاس إليه ، وينعموا به جيلاً بعد جيل . بل هم المنارات الساطعة التي تظهر معالم الحق ، وتكشف المكنون من الأسرار ، وتضع أبصار النَّاس وبصائرهم على طريق الهدىٰ والنور . .

وعلى هذا الأساس كانت الأديان السماوية واحدة في جوهرها وأصولها ، حتى ليسوغ لنا أن نعتبر الكتب السماوية جميعاً من حيث ما تتضمنه من المبادىء الدينية الأساسية والمثل الأخلاقية كتاباً واحداً تتعدد أبوابه ، ولكن تتوحد أهدافه ومراميه ، وتختلف الأساليب في فصوله ولكن تتفق دلالاته ومعانيه . . ولعل هذا هو ما يفهم من القرآن الكريم حينما يتحدث عن الدين بوجه عام

- **الأديان السماوية واحدة في جوهرها واصولها حتي ليسوغ لنا أن نعتبرها جميعا كتابا واحدا تتعدد أبوابه وتتوحد اهدافه.**
- **واجب المؤرخ الذى يتصدى لكتابة السيرة أن يستضيء بكتاب الله عز وجل يلي ذلك كتب السنة الصحيحة والمراجع الأساسية في التاريخ**

فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران : ١٩) ويقول : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ (آل‌عمران : ٨٥) .

ويذكر وصية إبراهيم لبنيه حينما قال لهم :

﴿ يَا بَنِيَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) .

فالاسلام هو الدين الخالص إلى عبادة الله ، والانقياد لأمره وتقواه مهما تعدد الأنبياء وكثر الدعاة .

ولأن مشيئة الله سبحانه قد سبقت بأن يجعل دين محمد ﷺ دين العالمين فقد أخذ الله العهد والميثاق علىٰ الأنبياء في عصورهم المختلفة بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن جاءهم مصدقاً لما أنزل عليهم ، وكان معنى ذلك تنبيه الأمم والشعوب التي ستدرك زمن محمد ﷺ إلى الإيمان به والتصديق بدعوته لأنها دعوة الحق الذي لا يأتيه الباطل ، ولأنها الدعوة العالمية التي كتب الله لها الخلود ، ما دامت السماوات والأرض وما بقي هذا الوجود ، وفي ذلك يقول الله عزَّ وجلّ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴾ (آل‌عمران : ٨١) .

. . ولا ريب أن سيرة هذا النبي العظيم ﷺ إنما هي الأساس الكامل لدعوته الكريمة التي أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم بالهدىٰ والنور ، ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاءة العطرة للمسلمين . بل للإنسانية جمعاء تناقلتها الأمم والشعوب جيلاً بعد جيل ، ثم سجلت بعد ذلك على مختلف العصور في كتب يضيق بها الحصر والتعداد ، وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء ، وتتكور النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات . .

وواجب المؤرخ الذي يتصدىٰ للكتابة عن سيرة الرسول ﷺ أن يستضيء ـ أول ما يستضيء ـ بكتاب الله عزَّ وجل ، ثم يلي ذلك في الأهمية كتب السنة الصحيحة ، ولكن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يتعرضان إلاَّ لبعض النواحي الخاصة من حياة الرسول ﷺ ، ويتعرضان لها في إجمال يحتاج إلى كثير من التوضيح والتفصيل ، **ومن هنا كان لابُدَّ من المراجع الأساسية في التاريخ ، وأهمها : سيرة ابن هشام ، وتاريخ الرسل والملوك للطبري ، والطبقات الكبرىٰ لابن سعد في جزئيه الأول والثاني** . . . إلى غير ذلك من المراجع الأصيلة .

ويبقى بعد ذلك ما كتبه المؤرخون المحدثون ، ولابد من الرجوع إلى كتبهم حتى يستنير بها إن كانت صحيحة ، أو يضيف إليها ـ بقدر المستطاع ـ ما يمكن أن يهتدي إليه من آراء جديدة ، أو يفنِّد ما جاء في بعضها من الآراء التي لا تستند إلى أساس سليم . . ولا شك أن مثل هذه الآراء الفاسدة التي جاءت في بعض الكتب الحديثة يرجع بعضها إلى آراء قديمة دُسَّت إلى كتب المسلمين في عصور التدوين الأولى ، وكان أساسها يرجع إلى أناس أسلموا ظاهراً ولما يدخل الإيمان إلى قلوبهم ، أو دخلوا في الاسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه ، ويرجع البعض الآخر إلى أناس من المستشرقين تناولوا في بحوثهم سيرة الرسول ﷺ ، وكانت روح التعصب والتحامل تطغى على معظم كتاباتهم ، ومنهم المستشرق « **وليم موير** » والمستشرق « **كايتاني** » . وقد نقل عنهما بعض المؤرخين المحدثين متجاهلين سوء نيتهما ونية غيرهما ، أو مخدوعين ببريق الأسلوب ، وغافلين عما يخفيه هذا الأسلوب من سُمٍّ زعاف وشرٍّ كبير . .

■■■■■■

وسوف نبدأ الآن سلسلة من البحوث حول المشكلات التي تعرض لها العلماء والباحثون في سيرة الرسول ﷺ ، واختلفت حولها الآراء يمنة ويسرة ، وقد يكون بعض هؤلاء العلماء من أولياء الرسول ﷺ ومحبيه ، ولكنهم انزلقوا إلى أخطاء غير مقصودة فضلُّوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . ومثل هؤلاء الأولياء أشد خطراً على سيرة الرسول ﷺ من الأعداء ، لأن العدو كثيراً ما يتسلح بالباطل ويفتري الكذب ، ولذا تكون آراؤه قلقة في نفوس النَّاس والثقة بها مفقودة ، أما الوليُّ والصديق فلا يتوقع منه شرٌّ أو خطر ، ومن هنا يكون الشرُّ أبعد أثراً وأشد خطراً .

بين جهل الأصدقاء . . وافتراء الأعداء

مناقشة حول بشرية محمد ﷺ . .

وأول موضوع يجب أن نسلط الأضواء عليه ونتبين وجه الحق فيه هو ما روي من أخبار تتعلق بالزمن الذي وجد فيه الرسول ﷺ والعنصر الذي خلق منه ، وهي أخبار لا وجود لها مع الحق ولا وجود للحق معها ، لأنها تحمل في طياتها ما يهدمها من أساسها ، **ولأنها فوق ذلك تتنافى مع ما جاء في القرآن الكريم ، وما ثبت في السنة النبوية الصحيحة** ، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير عن أبي نعيم في دلائل النبوة أن رسول الله ﷺ قال : « **كنتُ أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث** » وما روي عن كعب الأحبار[1] قال : « **لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق محمداً ﷺ أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي في قلب الأرض وبهاؤها ونورها فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول الله ﷺ من موضع قبره الشريف ، وهي بيضاء نيرة فعجنت بماء النسيم في معين أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم ، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي والسماوات والأرض ، فعرفت الملائكة محمداً ﷺ قبل أن تعرف آدم أبا البشر ، ثم كان نور محمد ﷺ يرىٰ في غرة جبهة آدم ، وقيل له : يا آدم ، هذا سيد ولدك من المرسلين . فلما حملت حواء بشيث انتقل النور عن آدم إلى حواء ، ثم لم يزل النور ينتقل في أبناء آدم من طاهر إلى طاهر إلى أن وُلِد ﷺ[2]** » .

بل لقد وردت بعض روايات تقول : « **إن محمداً ﷺ أول خلق الله ، وأنه خلق من نور ، وأن هذا النور خلقت منه السماوات والأرضين والعرش والكرسي واللوح والقلم . . إلخ** » .

وإذا كان من واجبنا ـ نحن المسلمين ـ أن نقدر نبينا ﷺ حق قدره فإنه لحقٌّ علينا ـ كذلك ـ ألاَّ نتجاوز الحدَّ أو نسيء الفهم فنبعد نبيَّنا عن منزلته وقدره ، ونخرج به عن نطاق البشرية ، ونجري وراء مزاعم واهية تضر ولا تنفع ، حيث تجعل محمداً مخلوقاً من النور لا من التراب ، أو من طينة أخرى غير الطينة التي خلق منها آدم ، وحيث تجعله موجوداً قبل أن يوجد آدم أبو البشر . بينما نقرأ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تلكم الآيات التي يتبين منها الحق الذي لا ريب فيه حيث يقول الله عز وجل لرسوله :

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ** ﴾ (الكهف : ١١٠) ، فهو يأمره بأن يعلن للناسْ أنه بشر كسائر النَّاس ، وإنما يتميز عليهم باختيار الله له رسولاً يوحىٰ إليه . . ثم يؤكد الله ذلك المعنى في آية أخرى تشير إلى أن محمداً خلق من نفس الطينة التي خلق منها سائر البشر ، وذلك حيث يقول :

﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ (التوبة : ١٢٨) . . كما يروي في ذلك الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم** » .

وقد ذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لقول الله عز وجل : ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) . .

ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور في الآية الكريمة هو محمد ﷺ ، ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول : **إن محمداً خلق من نور ، جهلاً منهم بما يفهم من الآية . إذ لا شك أن النور الذي جاء في الآية الكريمة هو النور المعنوي الذي يضيء للناس طريق الحق ، وليس النورَ الحِسِّيَّ الذي تراه العين ، والذي يضيء كما تضيء المصابيح وكما تضيء الكواكب . . فالواقع الذي تطمئن له النفوس ، وتنهض به الحُجَّة أن محمداً نورٌ لأمته أضاء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ، ولكنه مخلوق من التراب الذي خلق منه النَّاس جميعاً ، وليس يضيره في قليل أو كثير أن يكون مخلوقاً من التراب ما دام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكبرىٰ التي أضاءت المشارق والمغارب ، وملأت العالم كله بالهدىٰ والرشاد . .**

والواقع الذي نؤمن به ونطمئن إليه أن محمداً ﷺ أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدراً ، وليس أول خلق الله وجوداً وأقدمهم

○ الواقع الذي نؤمن بـه ونطمئن اليه ان محمدا أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدرًا وليس أولهم وجودا وأقدمهم مولدا .

○ كان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم في تدويخ المستبدين وكسر شوكة طاغية إثر طاغية .

مولداً . . ذلك بأنه في التسلسل الزمني خاتم الأنبياء والمرسلين . . ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد صلوات الله وسلامه عليه من أبناء آدم ثم يوجد قبل أبيه . . ولا يستقيم مع المنطق السليم ـ كذلك ـ أن تكون الأفضلية بين النَّاس بقدم الميلاد وإلاَّ لكان الآباء والأجداد أبداً أفضل من الأبناء والأحفاد . .

وما أبدع قول البوصيري عن بشرية الرسول وفضله على سائر البشر :

ومبلغ العلم فيه أنه بَشَرٌ وَأنه خَيْر خَلْق الله كلهم

■■■■■■

أنبـــاء عن أحداث وقعت عند ميلاد الرســول . .

وقد ذكرت بعض كتب السيرة أن إرهاصات وقعت عند الميلاد فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرىٰ ، وخمدت النار التي يعبدها المجوس ، وغاضت بحيرة ساوة ، وانهدمت الكنائس التي حولها . وتغنى بهذا المعنى كثير من الشعراء في قصائدهم ، يدفعهم إلى ذلك حبهم للرسول ﷺ دون أن يدققوا في هذه الأنباء ، ويعرفوا مدىٰ صحتها ، فيقول صاحب البردة عن يوم الميلاد :

يوم تفرَّس فيه الفرس أنهمُ قد أنذروا بحلول البؤس والنِّقَمِ
وَبَاتَ إيوان كسرى وهو منصدعٌ كشمل أصحاب كسرىٰ غير ملتئم
والنَّار خامِدَة الأنفاس من أسَفٍ عَلَيْهِ والنَّهْر سَاهِي العَيْن من سدم
وَسَاءَ ساوة أن غاضت بحيرتها ورُدَّ واردُها بالغيظ حين ظمي

ومثل هذه الأنباء لا تعتمد على التحقيق العلمي ولا تستند إلى المصادر الأصيلة في التاريخ الاسلامي ، وقد أعجبني ما ذكره الشيخ محمد الغزالي في كتابه « فقه السيرة » في هذا الصدد حيث قال : « إن هذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة ، فإن ميلاد محمد ﷺ كان حقاً ، إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده ، وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي ، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصىٰ فعالهم في تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية ، فلما أحب النَّاس بعد انطلاقهم من قيود العسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الارهاصات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد ﷺ غنيٌّ عن هذا كله ، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرِّف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها . . » .

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الغزالي فنقول : إن معظم الكتب والمصادر الأصيلة في التاريخ والسيرة ، وكتب السنة الصحيحة لم تذكر هذه الارهاصات فيما ذكرت من سائر الارهاصات والمعجزات التي رويت عن الرسول ﷺ .

ومثل هذه الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها إذا وقعت ، ولو أن أعداء الاسلام رأوها لما أنكروها ، بل كانوا يسجلونها في كتبهم التي أرَّخوا فيها لتلك الفترة ، ويقولون عنها : إنها ترجع إلى أسباب كونية وعوامل طبيعية ، ويحاولون أن يلتمسوا لها أي تعليل يخرج بها عن إثبات الفضل لمحمد ﷺ ولدينه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، وبهذا يصبح واضحاً أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب القوة ما يجعلنا نطمئن إليها ونرجح وقوعها . .

وبعد فإن السيرة النبوية حافلة بالأحداث الجليلة والمعجزات الكثيرة التي لا يتطرق إليها ضعف أو وهن ، وسوف نبعثها إن شاء الله في البحوث الآتية حللاً منشَّرة ، وإلى جوارها ما يدعمها من حجج وبراهين تخرس ألسنة المنكرين ، ولسنا ـ والحمد لله ـ بحاجة إلى أن نتصيد الخوارق التي تعوزها الحجة ولا يؤيدها البرهان ، ولكن سنلقي المزيد من الأضواء على المشكلات التي تغيب فيها الحقائق بسفه الرأي من الأولياء أو بالكذب والافتراء من الأعداء .

هذا ، ومن الله العون وبه التوفيق .

هـــوامش

(١) جاء ذلك في كتاب « شرف المصطفى لأبي سعد النيسابوري » .
(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي .